القافلة تسير

رجل — لأنه يحمل طفله على ذراعه — ولكنه أقرب الى الشباب منه الى الرجولة .

وشاب — لأنه يحمل حمل الشاب — ولكنه أقرب ما يكون من اليفع الى الشباب يحمل ملابس وأغطية ، لحافا وبطانية .

وصبية تحمل على رأسها بعض المتاع طبلية فى طشت يعلوه قفص به عصفور صغير .

وامرأة — لأنها أم الطفل الذى يحمله زوجها — ولكنها ما تزال فتاة تحمل على رأسها حصيرا ملفوفا .

وامرأة أخرى عجوز تسير خلفهم جميعا .

رأيتهم جميعا يسيرون ، لا يحدث أحدهم الآخر لأن كلا منهم فى شغل عن الحديث بحمله لولا أن الشفقة تغلب رب الأسرة فيسأل أخاه أن ينقل إليه حمله ليستريح فيجيبه وهو يلهث بأن التعب لم يتسلل اليه بعد ذلك السير القصير .

ويعود الصمت يخيم عليهم .

هذه أسرة تنتقل من مسكنها لا أدرى أين إلى مسكن آخر لا أدرى مكانه لأن معرفتى به لا تقدم ولا تؤخر .

الذى رأيته دليل على نوع المسكن الذى تركوه ودليل على المسكن الذى يؤوون اليه فلا هذا ولا ذاك يتعدى غرفة واحدة ربما شاركوا فيها أسرة أخرى .

أسرة مكونة من ستة أشخاص لا يملكون أثاثا ولا فراشا ولا ملابس ولا أشياء مما توجد فى البيوت تستدعى أن تحملها لهم عربة يد بل لا تحتاج إلى مجهودهم جميعا لحملها فتسير العجوز — وهى ليست فى سن متهدمة — بغير حمل ولابد أنها ستحمل عن زوجة ابنها الحصير الذى تحمله على رأسها لتستريح .

والأسرة أفرادها كلهم أقرب الى الهزال منهم الى السمنة وثيابهم تدل على أن استهلاكهم للصابون أقل مما تستوجبه الصحة ، وأغلب الظن أنهم إذا جلسوا يأكلون لم يتناول كل منهم من الطعام ما يملأ بطنه ولا ما يحوى عناصر الغذاء الصحيح .

لو أن هؤلاء مروا بناصح خبير بأصول الصحة وعناصر الطعام اللازمة للطفل والبالغ يحسن التعبير ويستهوى السمع وألقوا بجمعهم بجانبه يستريحون ويشبعون عاطفة الفضول وسمعوا الرجل يشير الى ضرورة غسل الثياب مرة فى الأسبوع على أقل تقدير وينبههم إلى عدم استعمال الصابون المغشوش لأنه ضار للجلد والعين .

ويشير الى ضرورة دخول الشمس والهواء فى المسكن حتى ينفى جوه الى آخر نصائح الصحة .

ترى أتفيد هذه الأسرة من مجهود الرجل وتعبه كثيرا أو قليلا ؟ .

إنهم سائرون الى غرفة فى منزل فى زقاق لا تدخله هو الشمس فكيف تدخل الأسرة الشمس فى غرفتها .

وانهم لا يملكون ما يفيض عن القوت فان اشتروا صابونة فعلى حساب بطونهم ولن يشتروا إلا أرخص ما يعرض فى السوق ، ضر الجلد أو لم يضره .

هذا الشاب الرجل رب الأسرة يعمل ما يستطيع أن يعمله ليؤجر عليه فيقوم بأود أمه وزوجه وطفله ، وأخوه يعمل أيضا ليساعده على المعيشة ويعيش هو . وهما يأبيان أن أن تخدمه أختهما فى بيت فتجلس مع أمها وزوجة أخيها لا عمل لهن إلا أن يتطحن بين الطاحنة و فريسة .

وبجانب هذه العائلة الجائعة المعدمة التى تعيش على هامش المجتمع ، وان كانت تشترك فى تكوين الرقم المادى الذى يوصف المجتمع به ، بجانب هذه العائلة الجائعة التى تسير فى صحراء الحياة القاحلة تمر فى مسرعة صاخبة ، سيارات فرح منها غالى الطراز فيها وجوه مصبوغة ألوان زاهية وثياب وضيئة ، وراء أكثرها ما يحتاج لا يسوها فى هذا الجو الصافى الندية ولكنها تلبس دليلا على الثراء والبسار . وقوافل تتنقل بين واحات كأنها حنان فى صحراء الخيرة .

بجانب هذا النقص المادى تجد زيادة فى العوامل السريعة الأخرى تضر أصحابها فهم مبطونون يشكون آلام المعدة وسوء الهضم لكثرة ما يأكلون وهم فى زكام وبرد مستمرين لأن الملابس الثقيلة حين تخلع تشعر الجسم بفرق كبير فى درجة الحرارة وهذا الفرق أصل البرد وأصل الزكام :

وبجانب هذا الأثاث الذى تحمله قافلة الجزيلة تمر قوافل مسرعة من نوع آخر هى سيارات نقل تحمل تحفا فنية ثمينة تنتقيها من دكان أى قصر لتريد ما فيه من تحف ونفائس يجمعها مال ليشبع رغبة فارغة فى جاه كاذب وعز مزيف .

فى هذه القافلة الجوع والعرى والحاجة الى الضرورى الذى لا غنى عنه ليقوم الحياة وفى القوافل الأخرى السريعة الصاخبة شبع وترف رخيص مصطنع وفائض عن الكماليات الغالية . هذه وتلك هما طرفا الانسانية ، طرف هزيل حتى دق كأنه سن لابرة وطرف سمين وتضخم وعاد وورما فهو النعمة محسمة ، هما من انسانية واحدة ولكن ثمة فرض بينهما يزيد على التناقض بين الأضداد .

قد نجد حصانا هزيلا وحصانا سمينا ولكنهما يأكلان الشعير والتبن الا أن هذا حظه أكثر من حظ زميله .

وقد نجد سبعا هزيلا وسبعا سمينا ولكنهما يأكلان اللحم النيئ الا أن أحدهما يجد من الصيد أكثر من صاحبه .

الفرق بين كل من السمين وزميله الهزيل أن الكمية لأحدهما أكثر من الكمية للآخر ولكن نوع الطعام واحد .

الفرق بين الحيوان المحظوظ والحيوان الشقي فرق واحد في كمية الغذاء لا في نوعه ولا في شيء آخر . أما الفرق بين الانسان وأخيه الانسان ففرق ما بين السماء والأرض .

في الغذاء فروق في النوع لاعدد لها وفي الكمية كذلك وفي اللباس فروق وفي الفراش فروق هذا كله اختص به الانسان أما الحيوان فالفرق بين المحظوظ والتعس فرق واحد في كمية الطعام وحده .

لاتجد حصانا يأكل الشعير والتبن وحصانا يأكل مهلبية أو قرلدين مهما اغتنى صاحبه فليس له الا التبن والشعير .

ولكن إنسانا قد يأكل كسرة خبز يابسة بينما يأكل آخر ألوانا لم يسمع بها كثير من الناس .

يمسك إنسان كسرة بيمينه يأكلها وهو سعيد لأنه لا يستطيع أن يجلس حتى يأكل فلا مائدة ولا أطباق وشوك وسكاكين لكل لون من ألوان الطعام طبق وسكين وشوكة ، ولا دستور للطعام كالذي يسميه الانسان المحظوظ أدب المائدة ولا ، فروت سوات . بعد الطعام ليساعد المعدة على هضم ما ألقى فيها بغير حساب .

ويلبس انسان جلابية واحدة للستر لا للتدفئة ، لم يتعب في اختيار لونها ولم يجهد في اختيار ما ينسجم معها من قطع الملابس لأن لباسه قطعة واحدة ، ولا ينتقل من دكان الى دكان يبحث عن رباط رقبة يناسب بدلة نادرة المون ليس من مصر كلها قطعة تشبهه ، ولا يغضب لأن زوجته من الحرير قد انقطع وقد اعتاد ألا يلبس قمصانا الا منه ، ولا يعنى بغير ذلك من مشكلات الثياب العويصة وذاك الناس المتشعبة ، هذا لون لا يلبس الا مساء وذاك الناس للرياضة وغير ذلك من مشكلات .

وهذا انسان لا يشغل باله تقلب أسعار القراطيس ولا يهتم بتضخم النقد لأن النقد إن هزل وإن تضخم لا ينال منه إلا ما يشتري به نصف طعامه والنصف الآخر محروم منه في حالتي تضخم النقد وهزله .

الفرق بين إنسان لإنسان فرق يجعل الانسانية كلمة مبهمة تشمل العالم أنواع من الانسانية يختلف بعضها عن البعض اختلافا يستوجب أن تسمى كل منها باسم خاص كما تستقل فصائل الحيوان بأسماء مختلفة .

في العالم إنسانية ناعمة معقدة لها دستور كثير الأبواب كثير الفصول كثير المواد كثير الفقرات ، كلما أم الانسان به كان من الصعب فإن كثرت أخطاؤه اعتبر دخيلا وهذه الارستوقراطية المترفة .

وتلى هذه الانسانية العالية إنسانية دستورها تقليد دستور الأولى ولكنه أقل فصولا وأقل أبوابا وهى الطبقة الوسطى .

وتلى هذه إنسانية ثالثة دستورها مدة و حده هى الصرع فى سبيل البقاء .

هل يمكن أن ينتهى هذا الصراع فى سبيل البقاء، وأن يزول عهد السعى وراء الكفاف فتريق هذه الإنسانية الجائعة العارية الى إنسانية هى — وقد ضمنت الكفاف — دستور للحياة يحوى بعض المواد . لا أقول المواد التى تتعلق بالكماليات وآداب المائدة والثياب وتقاليد الاجتماع ولكن مواد خاصة بالنظافة و لتعليم والصحة العامة .

هل يمكن أن نرى هذه القافلة التى تحمل ما تملك فى الحياة على رؤوسها كأنها الزنوج يحملون متاع المستكشفين فى مجاهل افريقيا؟ هل يمكن أن نرى هذه القافلة تحوى عربة عليها أثاث وفرش وثياب ؟

وهل يمكن أن يكون حظ أفراد هذه القافلة وأمثالها ملايين — حظا أسعد وأن يكون قسطها من ثروة العالم قسطا أوفر يوفر لها الثياب والطعام والفرش .

الناس جميعا يأتون هذا العالم من طريق و حد و ينتهون الى مصير واحد، فلم لا يكون طعامهم على الأقل ولباسهم وكساؤهم و حدا و يتفاضلون فيما عدا ذلك .

متى تصبح العدالة بين أفراد النوع الإنسانى كالعدالة بين أفراد الفصيلة الواحدة من الحيوان : طعام واحد لكل نوع وجلد واحد لكل نوع .

الطعام والثياب والفراش كلها تخرج من الأرض التى يعود اليها الانسان فلم لا ينال كل إنسان نصيبا كافيا من الطعام والثياب والفراش، فان كان لأحد على أحد فضل فليكن بقوة العقل والإدراك أو بقوة الجسد وكماله و جماله فلا يكون أحد خيرا من أحد إلا بالعافية و يكون أحب الناس عند الله أتقاهم .

يجب أن يكون للإنسانية حد أدنى لا يهبط عنه إنسان فلا يجوز أن يجوع إنسان ولا يجوز أن يتعرى إنسان ولا يجوز أن ينام بغير فراش إنسان .

و إذا كانت الطبيعة كفلت لكل حيوان أو طير جلدا أو ريشا يقيه تقلبات الجو فيجب أن تكفل الانسانية لكل إنسان من الثياب ما يكفيه .

و إذا كانت الطبيعة تركت الحيوان فى غير حاجة إلى فراش أو أثاث فيجب أن توفر الانسانية لكل إنسان حاجته من الأثاث والفراش .

إن وجود جائع أو عار من الناس عار على الانسانية أعتقد أنها بلغت من سمو الإدراك ما يحفزها إلى القضاء عليه .